

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

د. شعبان حسن غالي

قسم اللغة العربية

كلية الآداب - الزاوية

تفتخر الأمم بتجربها الشعرية الأولى التي يكسبها الزمن نكهة أدبية ويمنحها ديمومة البقاء، بوصفها التجربة العريقة فناً في حياة الأمة، والوجه الأصيل لفكرها الأدبي، ورصيدها الحضاري في حقبة مهمة من وجودها الشعري حيث تصير تلك التجربة مع احتفاظها بخصوصيتها وسماتها الأدبية والفنية روح التراث القومي فكراً وموقفاً يجسده الاعتزاز والإعجاب بها مظهراً حضارياً يغني تجارب الشعوب الأخرى بما له من أصالة وجودة، وبعد قومي إنساني يتجلى في مضمون التجربة الشعرية، وفي واقعيتها، وصدق مشاعرها ومن هنا صارت القصيدة العربية القديمة في العصر الجاهلي مصدر التراث الشعري في الفكر الأدبي والنقدي عند العرب، وصار الاهتمام بها رواية وتدويناً وشرحاً وتحليلاً وتقويماً نقدياً وفنياً من أبرز السمات الحضارية التي تميزت بها العصور الأدبية التي تلت انبلاج الإسلام وصولاً إلى العصر الحديث بوصف القصيدة الأنموذج الأدبي الذي يمثل الاستعداد العقلي والجمالي للشعر العربي كياناً عربياً وإنسانياً، ((فالعناصر الجمالية والتاريخية والاتساع الرائع في معارفنا المادية وأقوالنا... لا يكون جوهر الحضارة⁽¹⁾)) وإنما يتوقف هذا الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأفراد، تلك الظواهر التي تمثل التجربة الشعرية ركناً أساسياً من أركانها من خلال قدرتها الأدبية التي تحدث بالضرورة تطوراً مهماً في مشاعر العصر وأحاسيسه الذي تعيش فيها تلك التجربة التي تسمو في بعض مضامينها الأدبية والنقدية لتعانق تجارب الشعوب الأخرى، ومن حيث البعد المكاني فإنك لا تستطيع ((أن تفهم تاريخ بلد ما إذا أنت فصلت أراضيها عن خريطة العالم، وضربت صفحاً عن كل ما نشأ خارج حدود هذا البلد بعينه⁽²⁾)).

د. شعبان حسن غالي

وهذا ما يفسر عالمية الأدب في الدراسات الأدبية في العصر الحديث، تلك الدراسات التي تذهب إلى أن فكرة الدراسة الأدبية يجب أن تقوم على سماع الأثر الأدبي لكل شعب من الشعوب في هذه الساحة الأدبية الشاملة المتفتحة. فكلمات الشاعر وقوافيه هي حركة دائبة لا تعرف الاستقرار، إن كانت مرتبطة ببعدها الزماني والمكاني، بيد أنها تبقى حرة في مضمونها ((تحلق دائماً... قارعة أبواب الفردوس بهمس وهدهوء، ناشدة لنفسها حياة خالدة⁽³⁾)).

فالفكرة العميقة لا يتوصل إليها إل ناقد ذو عاطفة عميقة كما يرى بعض الأدباء⁽⁴⁾ والشاعر في قصيدته هو صاحب الفكرة العميقة ومن هنا، برز الاهتمام بفكرة رواية الشعر وتدوينه وجمعه والتفنن في اختياره وتبويب في الأدب العربي خاصة والآداب العالمية الأخرى عامة، وبرز مع هذه الظاهرة مصطلح أدبي نقدي جديد يُعرف بالانتولوجيا، وقد تُرجم إلى العربية بالمقتطفات، وهي تعني مجموعة من أجمل القطع الشعرية، ويقصد بها ((مجموعة من المختارات الأدبية شعرية كانت أو نثرية⁽⁵⁾)) وتُرجم أيضاً بالمنتخبات، وهي تعني قطعاً مختارة من الدواوين الشعرية والمصنفات النثرية كما هو الشأن في " جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام للشيزري⁽⁶⁾، وتُرجمت أيضاً بالمنتقيات لتعني مجموعة من آثار أحد المؤلفين ((تبرز أفضل ما كتبه أو تعبر عن الاتجاه الفكري أو الفني الذي انتحاه في إنتاجه⁽⁷⁾)) لذلك يجدها الناقد تمثل أجمل ما في صفحات الأدب القديم أو الحديث وتبرز بجلاء تياً فنياً معيناً.

وتعد المختارات الأدبية اليونانية أو الانتولوجيا الإغريقية أقدم نموذج للاختيارات الشعرية والنثرية في الآداب الأوربية في حين عرف الأدب العربي هذا المصطلح الأدبي منذ عهد مبكر في حياته الحضارية والفكرية، فالشاعر أبو تمام تـ 231 هـ من خلال اختياراته الشعرية المتمثلة في حماسيته الكبرى والصغرى أي ديوان الحماسة والوحشيات، يعد رائداً في هذا الفن الحضاري من فنون النقد والأدب، ولكن ريادته لا تعني أنه أول من صنع الاختيارات الشعرية في الأدب العربي فقد سبقته إلى ذلك محاولات أخرى نهض بأعبائها علماء أفاذ ورواة ثقافت في جمع الشعر العربي القديم، وصنع الاختيارات

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

الشعرية أو الدواوين منه، لكن أبا تمام يُعد بحقّ – الشاعر الناقد الذي استطاع بحسه النقدي المرفه تبويب معان أظهرت قدرته النقدية وصفاء ذوقه العربي فأسهم بدور واضح في إثراء حركة تطور نقد الشعر ودلالاته المنهجية عند العرب لقد تبنى العلماء في روايتهم للشعر العربي القديم مناهج سليمة تحرص على تسلسل الرواية وصحة الإسناد، فبلغت هذه المناهج العلمية درجة من النضج والاستواء في العصر العباسي وخاصة من القرنين الثاني والثالث الهجريين فظهر تدوين أشعار القبائل وصناعة دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والأمويين، وتصنيف المجموعات لشعرية المختارة التي اعتنى بها النقاد والأدباء واللغويون والنحاة لأنها تضم بين طياتها أكثر من عصر أدبي واحد ولأنها قائمة على مبدأ الانتقاء والجودة والذوق النقدي في حسن الاختيار والتبويب فضلاً عن قيمتها العلمية والتاريخية، فهذه المجموعات الشعرية ((لم تكن في الواقع إلا المدرسة الكبرى التي تخرج فيها الشعراء المحدثون في الشعر العباسي⁽⁸⁾)).

ومن خلال الاستقصاء والتقصي لحماستي أبي تمام نجدهما تحتويان على بعض الخصائص والسمات النقدية العامة، لأن تلك الاختيارات الشعرية ((تقوم في الأصل على تحكيم الذوق في العناصر الفنية التي تسرى في داخل قصائدها، إذا ليس مدار الأمر فيها على التتبع والتقصي والاكتفاء بالرصد والتسجيل، بل على اصطفاء الأجل، وانتقاء الأفضل، واختيار الأمثل، وهذا منطلق النقد وأساس الحكم الأدبي⁽⁹⁾)).

لقد عرف أبو تمام الشاعر المرفه الحس مذاق هذه الاختيارات التي سبقته زمناً أو تعاصرت معه في بعض الأحيان، فقرأ وحفظ ودون كثيراً من أشعار الشعراء والقبائل، وكتب الاختيارات التي ألقت بدورها حركة علمية ونقدية متميزة في الفكر الأدبي العربي ولعلمنا باستفادة أبي تمام في مضامينه النقدية من كتب الاختيارات التي ألقت فلا بد لنا من إفراد مساحة متواضعة لها في هذا البحث حتى تتضح أهميتها الأدبية والنقدية لكل متأمل فيها، فحماد الرواية المتوفي سنة 158 هـ يُعد من أبرز المدركين لأهمية الشعر وروايته، وقد اشتهر بالمشهورات السبع، وهي قصائد مشهورة لسبعة فحول من الشعراء العرب قبل

د. شعبان حسن غالي

الإسلام، وقد غرقت بتسميات مختلفة، فهي المعلقات، والسبع الطوال، وغير ذلك⁽¹⁰⁾، وتعد هذه القصائد على اختلاف تسمياتها من روائع الشعر العربي القديم، ويبدو أن حماداً الراوية قد راعى في اختيار تلك المنتقيات الشعرية أموراً نقدية مهمة منها:

أ- جودتها الشعرية التي تمثل بجلاء البناء الفني العام للقصيدة العربية القديمة.

ب- الانتماءات القبلية، فتلك القصائد المختارة ليست لشعراء ينتمون إلى قبيلة واحدة بل إلى قبائل متنوعة، فامرؤ القيس مثلاً من قبيلة كندة، وزهير بن أبي سلمى من مزينة، وليبيد من بني عامر، وطرفة من بكر، وعنترة من بني عبس وعمرو وابن كلثوم من بني تغلب، والحارث بن جلزة من بني يشكر.

وقد أضاف إليهما ابن النحاس تـ338هـ قصيدتين إحداهما للنابغة الذبياني والأخرى للأعشى، وزاد التبريزي تـ502هـ قصيدة عاشرة لعبيد بن الأبرص ولأهمية هذه المنتقيات من المضمون النقدي فقد أقبل على شرحها بعض علماء اللغة والنحو والأدب؛ لأنها أسهمت في تحقيق شيء من التآلف القبلي الأمر الذي جعلها شائعة أكثر من غيرها في المناظرات وحلقات الدرس ومجالات النقاش والتذوق الأدبي لكونها مثلاً واضحاً لأصالة الشعر العربي القديم، فهي تمثل بجلاء نقاء اللغة العربية وصفاءها قبل أن يدب إليها اللحن، وتتسرب في أوصالها شوائب العجمة والغرابية، فضلاً عن أنها تمثل من خلال شعرائها المشهورين شخصيات أسلوبية مرموقة، فلكل قصيدة مشهورة أو معلقة منها أسلوبها المتميز الذي تنفرد به من حيث الدلالة والتعبير والمضمون النقدي والصورة الشعرية، ومن حيث فضاؤها الشعري ومناخها الفني⁽¹¹⁾، مع أنها تشترك في الأعم بخصائص موسيقية شعرية عامة، تتجلى بنضج نظامها العروضي المتقن، الملتزم بالقافية الموحدة، والوزن الواحد.

فإذا كانت المعلقات أو المشهورات على الاختلاف في عددها تُعد من عيون الشعر العربي الجاهلي فإن المفضليات لا تقل عنها أهمية أدبية ونقدية، وقد اختارها المفضل الضبي تـ164هـ، وهو عالم كوفي راوية ثقة، وأعلم من ورد على البصريين من غير أهل البصرة كما وصفه ابن سلام الجمحي⁽¹²⁾، وتُعد

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

المفضليات من المجاميع الشعرية الأولى، وتضم بين طياتها قصائد شعرية مختلفة في أطوالها من عيون الشعر العربي، الجاهلي بالدرجة الأولى ثم المخضرم للإسلامي، كما يعدّ شعراؤها من الشعراء الفحول الذين يُشهد لهم بالكفاءة والتميز.

ومن النوحى النقدية القيمة للمفضليات أن قصائدها أثبتت كاملة، فقد أوردها المفضل الضبي كما هي حسب ورودها مسندة وموثقة، معتمداً في اختيارها على ذوقه الأدبي، وحسه النقدي، وحرصه الشديد على الاحتفاظ بهذا التراث الشعري العريق صوتاً له من التثنت والضياع، وقد نشأت المفضليات متميزة بالاختيار الرائد للقصائد الطويلة، أما حماسات أبي تمام فلكونها اختياراً رائداً للمقطعات، يقول المرزوقي تـ421هـ: ((وقضيت العجب كيف وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطعات أنقى مما جمعه أبو تمام، ولا في اختيار المقصّدات أو في مما دونه المفضل⁽¹³⁾)).

ومما يعزز رأي المرزوقي السابق ما أشار إليه التبريزي في مقدمة شرح حماسات أبي تمام الكبرى، حيث يقول: ((وأشعارهم كثيرة، والمختار منها ما اختاره أمراء الكلام، وعلماء النظام، ومن أجود ما اختاروه من القصائد المفضليات، ومن المقطعات الحماسة⁽¹⁴⁾)).

ثم ينتقل بنا الزمن فنجد الأصمعي تـ216هـ يعقد حلقة في سلسلة كتب الاختيارات الشعرية من خلال كتابه الأصمعيات، الذي يُعدّ مثلاً آخر على هذا النوع من مؤلفات اختيار الشعر العربي القديم، والأمر نفسه ينطبق على جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وهي اختيار من المجاميع الشعرية لقصائد جاهلية ومخضرمة وإسلامية وأموية، والمتأمل لهذا المجموع الشعري يرى أنه حلقة متطورة في التأليف الاختياري، حيث قسم القرشي جمهرته على أقسام محكمة هي:

المعلقات، والمجمهرات أي القصائد المتينة السبك، والمنتقيات والمذهبات أي القصائد التي تمتاز بجودتها الشعرية، والمراثي، والمشوبات أي القصائد التي شابها الكفر والإسلام وأن شعراءها من المخضرمين، وأخيراً الملحقات أي القصائد المتلاحمة الأجزاء.

د. شعبان حسن غالي

ومن المضامين النقدية المتميزة التي تكشف عنها جمهرة أشعار العرب ظهور مسميات جديدة للقصيدة العربية القديمة كالمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والشوبات والملحقات، تضاف إلى تسميات أخرى أشار إليها الأديب الجاحظ⁽¹⁵⁾ 255هـ، كالمنصفات وهي القصائد((التي أنصف قائلوها فيها أعداءهم وصدقوا عنهم وعن أنفسهم، فيما اصطلوه من حرّ اللقاء وفيما وصفوه من أحوالهم⁽¹⁶⁾)). والحواليات، والمقلدات والمحكمات والموثبات، وهي القصائد التي((تدعو إلى استنهاض الهمم، وإثارة النفوس انتصاراً لحقّ مغتصب، أو شرف مهان، أو كرامة مهدورة⁽¹⁷⁾)) ومن أمثلة الموثبات قول عديّ بن زيد⁽¹⁸⁾:

وسائسُ أمر لم ييسسه أبُّ له

ورائمُ أسبابَ الذي لم يُعوّدَ

فلا تُقصّرَن عن سعي من قد ورثته

وما استطعت من خير لنفسك فأزّدي.

إنّ هذه التسميات قريبة من كونها مصطلحات نقدية أغنت اللغة النقدية للشعر العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، حيث سلطت الضوء على دراسة ظواهر شعرية كثيرة كالطبع والصنعة والطبقة والمذهب الشعري، وعمود الشعر، وتبويب كتب الاختيار حسب المعاني والمضامين وهي ظواهر نقدية تمثل تطور الفكر النقدي العربي حضارياً في تلك الحقبة من الزمن.

فإذا كانت المعلقات والمفضليات والاصمعيات وجمهرة أشعار العرب هي كتب اختيارات لقصائد طويلة ومتوسطة وقصيرة قائمة على أساس الذوق الأدبي والجزالة اللغوية والحرص على جمع التراث الشعري العربي على تتابع العصور الأدبية لتدوين اللغة والاستشهاد به على مسائل النحو فإن ظهور حماسة أبي تمام الكبرى والصغرى أي الوحشيات⁽¹⁹⁾، قد أرسيت نهجاً جديداً للاختيار يقوم على تبويب المعاني والأغراض أو الموضوعات الشعرية التي تمثلها المقطوعات أو المقطوعات المحضنة وليست القصائد لشعراء معروفين ومغمورين أو مقلين، وبذلك عدها نقاد ذلك العصر أنقى اختيار للمقطعات، وقد مهد أبو تمام الرائد في هذا الميدان الأدبي السبيل إلى ظهور اختيارات شعرية

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

أخرى بعدها كحماسة البحثري تـ284هـ، وحماسة الخالدين تـ371هـ، 380هـ، وتسمى بالأشباه والنظائر، والحماسة الشجرية لابن الشجري تـ542هـ وجمهرة الإسلام ذات النثر والنظام للشيزري تـ622هـ، والحماسة البصرية للبصري تـ658هـ، وحماسة العبيدي من أعيان القرن الثامن الهجري، وتُعرف حماسته بالتذكرة السعدية في الأشعار العربية، وحماسة القرشي النجفي تـ1280هـ.

إن البحث والتأمل في اختيارات أبي تمام الشعرية يفضي إلى أن أسباب الاختيار وشرائطه ومذاهب نقاد الكلام فيه مختلفة ومتعددة الاتجاه والغاية نظراً لاتساع الأفق النقدي، وعمق مداه في تحقيق عملية الاختيار التي تعدُّ بحد ذاتها تجربة نقدية لا تقف عند حدود التمييز للأساليب الشعرية فحسب بل تتعداها إلى ماهية الاختيار ذاته، وخاصة إذا اختص الاختيار بشعراء متقدمين، يختلفون في طرائقهم الشعرية، ومذاهبهم الفنية التي تمثلها قصائدهم الكثيرة والمتباينة في أغراضها، فهناك الاختيار القائم على البحث عن الشاهد الإعرابي والنحوي وذلك غاية النحويين، أو الاختيار القائم على البحث عن الشاهد والمثل وذلك غاية راوية الأخبار كما يقول الأديب الجاحظ⁽²⁰⁾، والاختيار القائم على تصيد الغريب والمهجور من الألفاظ، والفصيح والصحيح، وذلك غاية اللغويين والمعجميين، والاختيار القائم على الذوق الأدبي والجودة والشهرة الأدبية وذلك غاية النقاد والأدباء كما يظهر في حماسة أبي تمام، والاختيار القائم على تخير الألفاظ الرقيقة والسليمة، ((وجاء ما حرر منها مصفى من كدر العي والخلط ومقوماً من أود اللحن والخطأ، فهذه مناسب المعاني لطلابها، وتلك مناصب الألفاظ لأربابها⁽²¹⁾))، وذلك غاية البلغاء من أصحاب رونق الألفاظ والاختيار القائم على الانسجام بين الشكل والمضمون، المتمثل ((بتتيمم المقطع وتلطيف المطلع، وعطف الأواخر على الأوائل، ودلالة الموارد على المصادر، وتناسب الفصول والوصول، وتعادل الأقسام والأوزان، والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى حتى يطابق المعنى، ويسابق فيه الفهم السمع⁽²²⁾)) وذلك غاية بعض الداعين إلى توافر الوحدة الموضوعية في النص الشعري من النقاد والبلاغيين والاختيار القائم على طلب البديع من الترصيع والتسجيع والطباق والجناس وغيرها من المحسنات البديعية، وذلك غاية أصحاب البديع، والاختيار

د. شعبان حسن غالي

القائم على طلب المعاني المعجبة، والجزلة والرائعة المتمثلة بالتشبيه والكتابة والرمز والاستعارة، وذلك غاية أصحاب المعاني من النقاد ومثلهم الأعلى أن الشعر ثلاثة أقسام: ((مثل سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة⁽²³⁾)).

إن الاختيار في ضوء هذه الغايات والمقاصد والدلالات نوع من التأليف الأدبي والنقدي لا يستطيع القيام بأعبائه والانتهاه إليه – بوصفه فنا من فنون الأدب – إلا من أدرك الصورة الشعرية البارعة بمعانيها المستترة والبارزة وأمعن التأمل بينائها اللفظي البعيد عن العجمة والاستغلاق وعرف البديع طبقا من طباع خلق تلك الصورة الأدبية ((ونظر وتبحر في أساليب الأدب فتحير⁽²⁴⁾)).

فإذا توافرت لذلك المتخير الناقد عدته وشحذت قريحته نجده ((لا ينظر إلا بعين البصيرة، ولا يسمع إلا بذنّ النضفة، ولا ينتقد إلا بعين المعدلة، فحكمه الحكم الذي لا يبذل، ونقده النقد الذي لا يُغير⁽²⁵⁾)).

ذلكم هو الباحث الناقد في الاختيار الذي يعتمد على بصيرة ثاقبة، عميقة الرؤية، يعرف مذاقات القصائد والمقطعات الشعرية، يختار منها ما يختار بعدالة وإنصاف، ومن هنا كان أبو تمام في حماسيته نافداً منصفاً وعادلاً، استطاع بحسه النقدي المرفه من خلال هذه المختارات الشعرية التوكيد على مبدأ الجودة الفنية والذوق الشعري الصافي معياراً نقدياً في الاختيار، فهو شاعر متميز قبل أن يكون لغوياً أو نحوياً أو راوية أو إخبارياً، فجاءت حماسته مبوبتين ومرتبنتين على معاني الشعر قبل شهرة شاعرها، فكان ((يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقوله من الشعر بشهرته⁽²⁶⁾)).

فجودة الاختيار عند أبي تمام سمت على قصيدته، فلا غرابة إذا ما قيل فيه ((إن أبا تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره⁽²⁷⁾))، وقد أشار إلى براعة أبي تمام وعدالته وإنصافه مع الاختيار القائم على الجودة الفنية والتنكر للغريب، والابتعاد عن الابتذال الباقلائي تـ403هـ بقوله: ((والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام... تتكب المستنكر الوحشي والمبتذل العامي وأتى بالواسطة، وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، و لا يعدل به غرض يخص لأن الذي اختاروا الغريب اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشبه على غيرهم

المضامين النقدية في حماسني أبي تمام

وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار كشيء يرجع إليها في أنفسها⁽²⁸⁾). وحين اختار أبو تمام الجودة - حسب قيمتها المعروفة في عصره - معياراً للانتقاء لم يقصرها على عصر شعري دون آخر، بل جعلها مقياساً تتساوى فيه العصور الشعرية العربية كلها، مادامت الجودة قيمة نقدية لا تعرف الحدود الزمنية والمكانية، ((فلم يعتمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال، ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه المجيب لكل داعٍ، فكان أمره أقرب، بل اعتسف في دواوين الشعراء جاهليهم ومخزرميهم وإسلاميهم ومولدهم، واختطف منها الأرواح دون الإشباح واخترف الأثمار دون الأكمام، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه، لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه⁽²⁹⁾)).

ويبدو أن حرص أبي تمام على مبدأ الجودة في الاختيار نابع من اقتناع ذاتي عميق بها، فقد قال فيه الحسن بن رعاء: ((ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمة وحديثة من أبي تمام⁽³⁰⁾))، فحرص أبي تمام على الجودة في شعره كحرصه عليها في مختاراته، وهو المعروف بدأبه الشديد، ورغبته المطلقة في البحث عن الأصل الجيد، كما أشار إلى ذلك المبرد تـ285هـ، بقوله: ((وما أشبه أبا تمام إلا بغائص يخرج الدر⁽³¹⁾)).

ومع أن أبا تمام يُعد من الشعراء الخارجين على عمود الشعر حسب رأي الأمدي⁽³²⁾ تـ370هـ، لأنه انفرد بمذهب خاص يقوم على العناية بالبديع واختراع المعاني والاستقصاء فيها، والغموض وشدة التكلف، واستكراه الألفاظ، إلا أن معيار الجودة في اختياراته قد تجاوز مذهبه الشعري الخاص وطريقته في بناء القصيدة، إذ لا فرق عنده بين الجيد المطبوع والجيد المصنوع، أو الجيد الملتزم بعمود الشعر والجيد الخارج عليه، ومن الأدلة على ذلك ما رواه أبو بكر الصولي تـ335هـ، من أن أبا تمام وهو ينتخب أشعار المحدثين، فمر به شعر محمد بن أبي عيينة المطبوع، فنظر فيه ورمى به، وقال هذا كله مختار⁽³³⁾، وهذا دليل على علم أبي تمام بالشعر، لأن ابن أبي عيينة أبعد الناس شبيهاً به، وذلك لأنه يتكلم بطبعه، ولا يكذب فكره، ويخرج ألفاظه مخرج نفسه، وأبو تمام يتعب نفسه، ويكذب بطبعه، ويطيل فكره ويعمل المعاني

د. شعبان حسن غالي

ويستنبطها، ومبدأ الجودة في حماستي أبي تمام لم يولد من حبه وإعجابه وحفظه⁽³⁴⁾، للشعر العربي القديم فحسب، بل تعداه إلى المحدثين في العصر العباسي لأنه يتذوق الجودة الشعرية ويعشقها، وقد بلغ من إعجاب أبي تمام الشاعر الناقد بالشعر الجيد الرائق إلى أن ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها وهذا يتبين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها⁽³⁵⁾.

إن هذا القول لا يدل على أن أبا تمام ليس بثقة في اختياراته بقدر ما يدل على سمو ذوقه ورهافة حسه، وذوق عقله في أنه كان يعرف ((كيف يستخرج من القصيدة أروع ما فيها، فإذا اصطدم حسه بلفظة قلقة، استبدل بها غيرها، حتى يستوفي الكلام عناصر الحسن اللائقة به⁽³⁶⁾)).

فعمل أبي تمام في التعبير والتبديل ضمان للأجود حيث تتوافر القيمة الفنية الصرفة لا يختلف عن الأجود الذي دعا إليه خلف الأحمر تـ180هـ، وأخذ به الأصمعي وهو الراوية والناقد الذي اعترف بفراسته، وأثبتته محمد بن سلام الجمحي تـ231هـ، حين وصف خلفاً بقوله: ((كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدق لساناً⁽³⁷⁾)).

أما المعيار النقدي الآخر الذي تبناه أبو تمام في حماسيته فهو التصنيف أو التبويب الموضوعي، وهو يُعد رائداً في هذا التبويب القائم على المعاني والأغراض الشعرية، كالمدح والهجاء والنسيب وغيرها، وقد التزم أبو تمام بهذا المبدأ الموضوعي في تبويب حماسيته وقد تبوأ باب الحماسة في هذين الاختيارين الصدارة من حيث عدد الحماسيات أو المقطعات مقارنة مع بقية الأبواب الأخرى، ومن هنا جاءت تسمية هذه الاختيارات الشعرية بالحماسة ويبدو من واقع هذه النصوص الشعرية أن الحماسة فن شعري أصيل في الأدب العربي منحه بعداً واسع المدى ضم أكثر من معنى وغرض ودلالة، فالحماسة عند أبي تمام لا تحصر بمعناها الضيق المحسوس من الكر والفر والحرب ولكنها عنده فن ذو معنى عام يشمل الخصال الحميدة والقيم الأخلاقية التي تقتضيها الفروسية كالنخوة والصبر على المحن والنجدة، والحث على الإقدام وحماية الجار وذكر أيام العرب ووقائعهم والفخر بالنسب فالحماسة عند الناقد

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

أبي تمام هي ضرب من الأخلاق الرفيعة بكل ما تحمله هذه اللفظة من دلالات تذكر قارئها بمعنى الزهو والتفرد والتميز في المناقب والمفاخر والصفات الحميدة التي مثلتها العصور الشعرية العربية العريقة بأصالتها، والتي صورت فارسها العربي صادحاً بقصائد الفخر في ساحات البطولة وميادين المروءة يتغنى بشرف الأصل والمحتد، ومكارم البذل والعطاء، حتى يخيل للمرء أن العرب ((كانوا شعباً من الشعراء والمقاتلين امتزج عندهم صراع السيف والرمح بصراع الشعر والفكر⁽³⁸⁾))، فضلاً عن أن أبا تمام يعد رائداً في اختياره لنماذج من شعر النساء، أمثال الخنساء، وصفية الباهلية، وصفية بنت عبد المطلب، وعاتكة بنت عبد المطلب، وفاطمة الخزاعية وغيرهن، وتعد هذه النماذج المختارة ظاهرة جديدة في موضوع الاختيارات حتى عصر أبي تمام. فأبو تمام في اختياراته شاعر ناقد، اختار الجيد الأصيل الذي دلّ على غزارة علمه، وصفاء ذوقه الشعري، وهو رائد في تويب حماسيته تويباً موضوعياً حسب معاني الشعر وأغراضه، وسع من آفاق أغراضه، فطور بذلك مصطلح الاختيار شعرياً ونقدياً في الأدب العربي، فلا غرابة إذا ما وقع إجماع معظم النقاد على أن انثولوجيا الحماسة هي أنقى ما جمع من مقطعات، وأنها ((دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره⁽³⁹⁾)).

وفيما يلي نماذج لبعض المقطعات المختارة التي تدل حقيقة ما سبق ذكره عن أبي تمام الناقد، وهي أمثلة شعرية تبدو بين ثناياها روح الزمان والتراث الشعري العربي الأصيل، فهي قديمة بزمانها، عصرية بلغتها الشعرية الصافية كما أنها جانب تطبيقي عن مبدأ الجودة الفنية الذي تبناه أبو تمام في اختياراته الشعرية

قال الفند الزماني في حرب البوس(40):

مشيناً مشية الليث

غدا والليث غضبان

بضرب فيه توهين

وتخصيع وإقران

وقال جعفر الحارثي⁽⁴¹⁾:

د. شعبان حسن غالي

عجبتُ لمسراها وأني تخلصت
إلى وباب السجن دوني مغلقُ
ألمت فحيّت ثم قامت فودّعت
فلما تولت كادت النفس تزهقُ
وقال قطري بن الفجاءة⁽⁴²⁾:
أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال ويحك أن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يومٍ
على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمستطاع

المضامين النقدية في حماستي أبي تمام

المصادر:

- 1- فلسفة الحضارة، البرت شفيتز، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مطبعة مصر، القاهرة، 1960م ص 3-4.
- 2- الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي، ترجمة أمين الشريف، القاهرة، د. ت ص 157.
- 3- الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، يوهان فلفانج، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1944 ص 69.
- 4- الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، محمد غنيمي هلال، الطبعة الثانية، القاهرة 1960م ص 232.
- 5- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة مكتبة لبنان، بيروت، 1974 ص 20.
- 6- مسلم بن محمود الشيزري، نسبة إلى قلعة شيزر بالشام وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 525/2، والأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، 1992م، 223/7.
- 7- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت 1979م ص 268.
- 8- مصادر التراث العربي، عمر الدقاق، مكتبة دار الشرق، الطبعة الثالثة، بيروت 1972م، ص 35.
- 9- المصدر نفسه، ص 37.
- 10- يُراجع: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مصدر سابق 46.
- 11- مكانة القصيدة العربية بين النقاد والرواة العرب، عناد غزوان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1967م، ص 97.
- 12- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1974م 23/1.
- 13- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، شرح غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 2002م، 24/1.

د. شعبان حسن غالي

- 14- شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، شرح غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 2000م، 4/1.
- 15- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1985م، 9/2.
- 16- المنصفات جمع وتحقيق، عبد المعين الملوحي، دمشق، 1967م، ص16.
- 17- الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام، جمع محمد فتاح، كلية الآداب، جامعة بغداد 1981م ص 17.
- 18- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القُرشي، شرح عمر الطباع، دار العلم، بيروت، ص 153.
- 19- تراجع: الموازنة بين الطائيين، للأمدي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية 1961م، 55/1.
- 20- البيان والتبيين مصدر سابق 34/4.
- 21- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، مصدر سابق 10/1 وفي أدب الإسلام محمد عثمان على 20.
- 22- المصدر نفسه 9/1.
- 23- نفسه 11/1.
- 24- نفسه 14/1.
- 25- نفسه 15/1.
- 26- إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر 1963م، 117.
- 27- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، مصدر سابق 13/1، 14 وكتب الحماسة وقيمها الأدبية والنقدية، شعبان غالي 35.
- 28- أخبار أبي تمام، للصولي، تحقيق خليل محمود شاكر، بغداد، 1983م، 118.
- 29- أخبار البحتري، للصولي، تحقيق صالح الأشر، الطبعة الثانية، دار الفكر دمشق، 1964م، 165.
- 30- يُنظر: الموازنة بين الطائيين، للأمدي مصدر سابق 6/1.
- 31- يُنظر: شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، مصدر سابق، 14/1.

المضامين النقدية في حماسني أبي تمام

- 32- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1952م 27/1.
- 33- الحماسة في شعر الشريف الرضي محمد جميل، وزارة الإعلام، دار الحرية، بغداد 1974م، 119.
- 34- وفيات الأعيان، لابن خلكان تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1969م، 12/2.
- 35- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، مصدر سابق 29/1.
- 36- مصدر سابق 42/1.
- 37- مصدر سابق 101/1.
- 38- نفسه 103/1.
- 39- نفسه 126/1.
- 40- نفسه 130/1.
- 41- نفسه 133/1.
- 42- نفسه 160/1.